

العراق: مهد الحضارات والنبوات

لندن - عبد المحسن الركابي



The Winged Bulls, Nineveh.

الثيران المجنحة في نينوى (من إرشيف الناشر).

طمى نهري دجلة والفرات حين فيضانهما، فأنحسر ماء الخليج رويداً رويداً وصار جزءاً من اليابسة، فحول السومريون المستنقعات إلى حقول خصبة ذاعت شهرتها، بواسطة الترع وأنظمة الري المتقنة. حتى قال عنها هيرودوتس في تاريخه "وتنمو عندهم الزروع جداً حتى لاتضاهيها أرض مخصبة بكل أقطار العالم". يضم تراث بلاد ما بين النهرين القديم مئات الآلاف من مختلف الأنواع من الآثار تعود لمختلف الحضارات: حضارات ما قبل التاريخ وحضارات السومريين والأكديين والبابليين والآشوريين والفرس والاعريق وغيرهم، والتي تزّين الآن أشهر متاحف العالم في لندن وباريس وبرلين وفيلادلفيا وبييل واسطنبول وغيرها، بالإضافة إلى المتاحف العراقية قبل عمليات السلب الأخيرة. كما كان بلاد ما بين النهرين مسرحاً لحركة النبوات الأولى، فقد سكنه آدم (ع) عندما أخرجه ←

والفلك ويخطو خطوات جادة في مضمار التمدن، ويقيم أولى الأباطوريات في التاريخ.

بلاد ما بين النهرين

وهي الأرض الواقعة بين نهري دجلة والفرات، وتسمى أيضاً ببلاد الرافدين. وكان السومريون أقدم سكانها يسمونها "كلام"، ويسمونها الأكديون الذين عاصروهم "ماتو" بمعنى الأرض، بينما أطلق عليها المصريون "نهرينا" والاعريق "ميسوبوتاميا" أي أرض ما بين النهرين، وورد ذكرها في التوراة باسم شنعار، وقبل الفتوحات الإسلامية كانت تسمى بالعراق، إن عبقرية الشعب السومري الذي سكنها كانت إحدى الأسباب التي جعلت لها شهرة عالمية واسعة ومنزلة تاريخية وسياسية عالية، فقد كان جنوب العراق من الوجهة الجيولوجية قعراً لخليج البصرة فارتفعت أرضه برسوب

بمقدار ما أثارت عمليات السلب والنهب والتدمير للمتاحف والمكتبات الكبرى ودور حفظ المخطوطات في العراق بعد الحرب الأخيرة عليه موجة من الحزن والألم والسخط لما أصاب التراث الثقافي والتاريخي العراقي والإنساني عموماً، فقد سلطت الأضواء على حضارة بلاد ما بين النهرين الذي قامت فيه أولى الحضارات البشرية المعروفة في التاريخ، والذي يحتل العراق حالياً الجزء الأكبر منه، ففي الجزء الجنوبي من العراق، وقبل حوالي 7 آلاف سنة أستطاع الإنسان هناك بعد مرحلة الاستقرار وتطوير اساليب الزراعة وتدجين الحيوانات أن يؤسس أولى المدن في العالم، ويبتكر في نهاية الألفية الرابعة قبل الميلاد أول كتابة في التاريخ، ويشيد السدود الأروائية والوقائية ويبني البنايات المعمارية والزقورات، وأن يتعامل لأول مرة مع المبادئ الأساسية للرياضيات، ويتطور في علم النجوم

سياحة مدن



طاق كسرى
Ctesiphon

كتابة لغتهم الاكديّة نفس الخط المسماري السومري. إن ما قيل في السومريين من إبداع وحضارة إنما يشاركه فيه الشعب الأكدي الذي تقبل حضارة السومريين وحسنها وإحتفظ بها، بحيث يبدو الجهود الحضاري لهما هو عملاً مشتركاً من شعبيين متباعدين في اللغة والأصل الاثني والجغرافي. ثم تعرض القسم الجنوبي من بلاد سومر وأكد إلى غزو من قبل بعض الأقوام المجاورة، لكن بقيت بعض مناطقها تؤدي دورها الحضاري بل وتزدهر كما في مدينة لجش وما جاورها. وقد اشتهر من بين الأمراء السومريين في أواخر هذا العهد ملك اسمه "جوديه" الذي عرف بتمائله الكثيرة وعمله على إحياء الآداب السومرية وتشديد العديد من المعابد الفخمة.

الحكم السومري

استطاعت مدينة الوركاء بقيادة ملكها السومري "أوتو - حيكال" الذي لقب نفسه بملك سومر وأكد النخلص من المحتلين. ومن آثار هذه المدينة: منحوتة تعود إلى 4 آلاف سنة قبل الميلاد تمثل رأس امرأة من

القتال مستمر بينهما، وقد انتهى عصر فجر السلالات بقيام سرجون الاكدي (2316 - 2316 ق.م) بالقضاء على سلطان السومريين وتوحيد العراق في ملكة واحدة، ومن ثم الانطلاق في فتوحاته الى البحر المتوسط وإلى آسيا الصغرى. وقد حصل تقدم عظيم في العمارة والفنون عموماً في العصر الاكدي، وتميزت الفنون فيه

بالقوة والحياة والحركة.

ولكن بعد ضعف الاكديين استطاع السومريون انتزاع استقلالهم ما حدا بالأكديين الى انتهاج سياسة تستهدف انتهاء الاقتتال وتوحيد كلا الشعبين. وهكذا تأسست مملكة أكد وسومر. وقد استخدم الاكديون في



تمثال من البرونز المجوف يحتمل أنه لنرام سين الأكدي.

Features of an Akkadian ruler, possibly of Naram-Sin, created from the hollow bronze casting.

الله سبحانه من الجنة، ورست سفينة النبي نوح (ع) بعد الطوفان في أرضه، وولد النبي إبراهيم (ع) في إحدى مدنه أور وأدى بدايات رسالته هناك. وقصده النبي صالح (ع) مع من آمن به بعد هلاك ثمود. وغيرهم من الانبياء قبل النبي موسى (ع). ولما كانت الكتابة المسمارية السومرية قد ابتكرها الانسان هناك مبكراً. وظلت متداولة ويتعامل بمرورها في الدول التي جاءت بعد السومريين لفترة طويلة إلى فترة ظهور المسيح (ع). لذا تضمن تراث بلاد ما بين النهرين إشارات كثيرة وغنية تصلح كمادة لاستكشاف قضايا مهمة في سياق حركة تلك النيوات.

عصر فجر السلالات

بدأ فجر الحضارة في بلاد الرافدين بحدود نهايات الالف السادس قبل الميلاد وانتهى بالفترة الزمنية التي إبتدع فيها الانسان هناك الكتابة لأول مرة في الربع الاخير من الألف الرابع قبل الميلاد. وقد شهدت البلاد خلال تلك المدة اتساع الزراعة وبداية الحياة الحضريّة ونشوء اولى المدن في التاريخ. وكذلك معرفة فن التعدين وصناعة الأجر المفخور وغيرها.

وتبع ذلك عصر فجر السلالات للفترة من 2850 وحتى 2400 ق.م. او ما يسمى بالعصر السومري القديم او عصر دويلات المدن . وهي مدن الوركاء (أوروك)، أور، أريدو، لاجش. كيش وغيرها. حيث مرت البلاد بفترة من الاستقلال لتلك المدن التي كانت كل منها بمنابة ملكة يديرها ملك. وبحالة حرب فيما بينها في بعض الاحيان. ومرت أيضاً بفترة توحد في ملكة واحدة من مالك متعددة في تلك المدن تخضع لملك واحد. والسومريون هم أولى المجموعات البشرية المعروفة التي استطاعت وضع لبنات أقدم حضارة أصيلة متطورة في العالم في القسم الجنوبي من العراق القديم الذي عرف ببلاد سومر. ولا يزال أصلهم محل اختلاف بين المؤرخين. وقد كان أهم ما قدمه السومريون هو إختراع الكتابة.

الحكم الأكدي

لم يكن السومريون وحدهم في بلاد ما بين النهرين. إذ كانت بعض القبائل السامية الرحالة التي نزحت من شبة جزيرة العرب في حدود نهايات الالف الرابع قبل الميلاد تحل المناطق الواقعة إلى الشمال من سومر والمسمما بأكد. وتقيم فيها مديناً كبيرة أيضاً. كبورسيا وكيش ونقر وغيرها. وكان



كنوز النحت السومري والآشوري في متحف اللوفر.

The treasures of Sumerian and Assyrian sculpture in the Louvre.



السيد الشاكري مع مستر فرانك من المانيا من شركة هولس المنتجة للبتروكيمياويات أمام أسد بابل (من أرشيف الناشر).

Mr. Shakiy and Mr. Frank from the German "Hüls" company in front of the "Lions of Babylon".

(إله الشمس). وإن أهم ما تميز به العصر البابلي القديم اتساع المدن وكثرتها. والتطور المهم الذي حصل في العلوم والمعارف البشرية وتدوينها. واعتبار زمان ظهور العلوم البشرية الحقة هو في هذا العصر. ثم سقطت بابل بيد الحثيين؛ وهم قوم من بلاد الأناضول. وحكم بعدهم قوم يعرفون باسم الكوشيين. هاجروا <

حمورابي. تعد من أولى الشرائع المتكاملة في العالم التي تجمع القوانين المدنية والعقوبات والأحوال الشخصية. وهي موجودة الآن في متحف اللوفر في باريس. وتتكون من 282 مادة قانونية. ويشاهد في أعلى المسلة حمورابي وهو يتسلم القوانين من كبير الآلهة

صغيرة جداً وقتها واتخاذها قاعدة لها في بدايات الالفية الثانية قبل الميلاد. ثم استطاعت أن تسيطر على ملكة أكد وسومر وتأسيس ملكة عظيمة سميت بسلالة بابل الاولى (1894 - 1595 ق.م). اشتهرت بملكها السادس "حمورابي" (1793 - 1751 ق.م) الذي استطاع أن يوحد البلاد في ملكة واحدة واتخاذ بابل عاصمة لها بعد أن عمرها ووسعها وجعلها أشهر مدن ذلك الزمان حتى دعيت البلاد كلها باسمها.

ومن أعمال حمورابي المهمة سنّ شريعة واحدة تسري احكامها في جميع أنحاء المملكة عرفت بشريعة

الرخام بارتفاع 20 سم وقد بدا الوجه شفافاً من خلال نعومة الصقل والتمثيل. تعتبر ذروة في تاريخ النحت السومري. وأيضاً إبريق من الحجر الرمادي المزخرف بالصدف. وإناء اسطواني الشكل يعود إلى ما قبل 3200-3500 ق.م. منحوت بمشاهد ترمز إلى درجات الكائنات على الأرض. تبدأ من الماء من الأسفل ثم النبات ثم الإنسان والكهنة حاملي النذور إلى آخر مشهد وهو الخورية. إلى غير ذلك من روائع الآثار.

ثم إنتقل الحكم السومري بعد ذلك إلى مدينة أور. حيث قامت سلالة جديدة فيها عرفت بسلالة أور الثالثة التي تعتبر آخر سلالة سومرية في التاريخ (2113 - 2006 ق.م). ويعتبر الملك "أور - مو" من مشاهير ملوكها ومن أقدم المشرعين في التاريخ. وكان من المهتمين بالبناء والعمران. ومن أشهر إنجازاته العمرانية بناؤه زقورة في أور تتكون من ثلاث طبقات.

العصر البابلي القديم

وفيه تمكنت إحدى القبائل السامية، التي كانت بجوار البحر المتوسط منذ أقدم العهود وهم الاموريون من الاستيلاء على بابل في بلاد الرافدين التي كانت



قيثارة ذهبية سومرية.

A Sumerians harp made of solid gold.

متحف برلين) وشارع الموكب (أهم شوارع المدينة). وكان فيها عدد كبير من المعابد أشهرها برج بابل العالي الذي يقدر ارتفاعه بنحو 91 متراً. يتألف من سبع طبقات. كل طبقة أصغر من سابقتها. كما أن من آثار بابل أسدها المعروف بـ"أسد بابل". رمز القوة في العراق القديم. وتقع أطلال بابل اليوم قرب مدينة الحلة.

الاحتلال الاجنبي لوادي الرافدين

خضع العراق بعد القضاء على نفوذ الكلدانيين لحكم دولة الكيانيين. وفي عام 331 ق م تمكن الاسكندر الكبير من تدمير جيش "دارا" حفيد كورش ودخول بابل بلا حرب. وبعد موت الاسكندر كان العراق من نصيب أحد قواده "سلوقس". فأُنشئت الدولة السلوقسية في العراق. التي قامت بتعمير المدن والممالك المفتوحة وإنشاء عاصمة لها في الوضع الذي يبعد 30 كيلومتراً عن بغداد جنوباً سميتها "سلوقية" أضحت تضاهي بابل بالثروة وال عمران والنفوذ. ولكن في عام 247 ق م تمكن "الفرثيون" من تلك الدولة وأنهوا وجودها. ثم قاموا ببناء مدينة ضخمة جديدة على الضفة اليسرى من دجلة قبالة سلوقية أسموها "طيسفون" المعروفة اليوم بـ"المدائن" وجعلوها عاصمة لهم. وفي عام 226 م تمكن "ارديشير" الفارسي من اخضاع العراق لحكم الساسانيين. أقام الساسانيون إيوان كسرى ذا الطراز الآشوري الذي يعتبر أعلى الآثار المبنية باللبن والطوب. ولا يزال أثر منه ماثلاً للعبان في طيسفون. وكانت نهاية الساسانيين بعد نشوب الحرب بينهم وبين قيصرية روما وظهور الدعوة الاسلامية في هذه الظروف. حيث تمكن المسلمون من هزيمتهم وإدخال العراق تحت الحكم الإسلامي ليشهد مرحلة سياسية أخرى وغزواً حضارياً مختلفاً. ■

أصبحت بابل أشهر مدينة في العالم القديم وأعجوبة فيه بعد أن وصلت الذروة في توسعها على يد الملك البابلي نبوختنصر وطغت شهرتها حتى أصبحت رمزاً لحضارة العراق القديم فسمي بلاد بابل (بابلونيا). وعدت أسوارها وجنائنها المعلقة من عجائب الدنيا السبع المشهورة، واعتبرها ارسطو اعجوبة في عظمتها وسعتها.

وأعادوا إليها جمالها وعظمتها. وهم آخر من تسلط على بابل من الساميين وجعلوها عاصمة لهم في دولة تسمى بـ"دولة بابل الجديدة". وقد برز منهم ملوك من أمثال نبوختنصر (604 - 562 ق م) الذي يعد عهده من عهود الانتعاش المتميزة التي عاشتها بابل وجميع مدن العراق المهمة على أكثر من صعيد. وفي زمانه قسم البابليون النهار إلى 24 ساعة والساعة إلى 60 دقيقة والدقيقة إلى 60 ثانية. كما اكتشفوا السنة الشمسية والسنة القمرية والخسوف وظواهر سماوية أخرى وغير ذلك من الاجازات. احتل نبوختنصر أورشليم عاصمة دولة يهودا. وبعد بضع سنين دمّرها وأحرق الهيكل ورحل قسماً كبيراً من سكانها إلى العراق عندما أعلنت العصيان ثانية. وبعده بفترة ليست بالطويلة سقطت بابل على يد ملك الاخمينيين (كورش) في عام 539 ق م. ليسدل الستار من حينها على حضارة العراق القديم وتطمر علومه وأمجاده فروعاً طويلة تلت قبل أن يبرغ فجر الاسلام.

عاصمة الشرق القديم

أصبحت بابل أشهر مدينة في العالم القديم وأعجوبة فيه بعد أن وصلت الذروة في توسعها على يد الملك البابلي نبوختنصر وطغت شهرتها حتى أصبحت رمزاً لحضارة العراق القديم فسمي بلاد بابل (بابلونيا). وعدت أسوارها وجنائنها المعلقة من عجائب الدنيا السبع المشهورة، واعتبرها ارسطو اعجوبة في عظمتها وسعتها بدأت قرية ثم بلدة في أواخر الألف الثالث ق م. حتى صارت عاصمة للإمبراطورية البابلية الأولى ثم الثانية. بلغت مساحتها في عهد نبوخذ نصر حوالي 10 كلم مربع ومحيطها 18 كلم. أما نينوى عاصمة الآشوريين فبلغت مساحتها حوالي 7.4 كلم ومحيطها 9 كلم. بينما بلغت مساحة أُنثا في أقصى اتساعها 2.2 كلم مربع. وعندما قهر الإسكندر الفرس ودخل بابل أعجب بها وبقي فيها حتى وفاته عام 323 ق م. تقع بابل على نهر الفرات الذي يمر في وسطها تقريباً ويخترقها من الشمال إلى الجنوب. وهي مستطيلة الشكل. يحيط بها سوران عظيمان خلفهما خندق للماء. وفي السور الداخلي ثمانية أبواب تؤدي إلى المدينة. ويتميز تخطيط المدينة بشوارع متعامدة واسعة تنتهي ببوابات المدينة الرئيسية. وتطل جوائنها المعلقة على بوابة عشتار (الموجودة الآن في

إلى العراق من الشمال الشرقي وأسسوا لهم عاصمة في الجبل المسمى "عرقوف" (دوريكادو) دامت 577 عاماً.

الآشوريون

وهم قوم ساميون كانوا من ضمن الأقوام الذين حكمهم الأكديون والبابليون. ثم استطاعوا بعد ذلك الاستيلاء على بابل. ومن ثم التوسع والسيطرة على سورية ومعظم البلاد الفينيقية. وقد استكملوا ذلك في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد. ويعتبر من اعظم ملوك عهدهم الجديد: "تيجلانليز الثالث" (745-727 ق م) الذي وحّد بابل وأشور في ملكة واحدة صارت فيها الامبراطورية الآشورية مجدداً سيدة الشرق القديم. و"سرجون الثاني" (727-705 ق م) الذي قضى على المملكة اليهودية الشمالية في عام 721 ق م. وعلى خالف الفرعنة والدويلات الصغيرة في فلسطين وسوريا. و"سنحاريب" ابن سرجون الثاني. و"آشوبانيبال" (668-626 ق م) الذي كان أكثر ملوك الآشوريين إهتماماً بالأدب والمعرفة. فقد جمع أكثر من 30 ألف لوح طيني في شتى العلوم والمعارف.

قام سرجون الثاني بأعمال فنية ومعمارية عظيمة منها تشييد عاصمة جديدة قرب نينوى أطلق عليها أسم "دور شروكين" أي مدينة سرجون. تعرف خرائبها في الوقت الحاضر بـ"خرسباد". ومن أشهر مدن الآشوريين "عمرد". التي ورد اسمها في الكتب المقدسة بإسم "كالجو". وتقع على بعد 35 كلم جنوبي مدينة الموصل. والتي جعل الملك آشور ناصربال الثاني (883 - 859 ق م) منها العاصمة العسكرية للدولة. فشيد فيها المباني والقصور واعتنى برفورتها التي تعتبر من أهم زقورات العصر الآشوري. وقد كشفت البعثات الأجنبية التي نقت في أطلال عمرد عن عدد هائل من الآثار النفيسة داخل حصونها ومعابدها وقصورها. وقد نقل الكثير منها إلى عدد كبير من المتاحف العالمية من بينها النيران المُنحة التي كانت تزين البوابات والقصور الآشورية وتزين الآن متحف لندن. والألواح الجدارية الحجرية التي كانت تزين قاعات الملوك. إلى جانب العديد من التماثيل والقطع الفنية النادرة.

الكلدانيون أو بابل الجديدة

يعتبر عهدهم آخر العهود الزاهرة في العراق القديم (626 - 539 ق م). احتلوا بابل من الآشوريين وعمّروها